بسم الله الرحمن الرحيم

سورة العنكبوت

سورة مكية، تبدأ بقوله تعالىٰ:

﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢﴾

﴿الٓمٓ﴾ هي من الحروف، التي بدأت بها بعض السور للفت أنظار المشركين، وجذب اهتمامهم؛ لسماع ما بعدها من القرآن حال إعراضهم عن ذلك.

﴿أَحَسِبَ﴾ أظَنَّ الناس ﴿أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ يعني يؤمنون، ويتمسكون بدينهم، ويعلنون مبادئه ﴿وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ لا يتعرضون للفتن، والمشقات، والأذىٰ، والابتلاءات؟ أبدًا لن يتركوا دون ابتلاءات.

وهذا ليس خاصًّا بهم، بل هي سنتنا في أصحاب المبادئ والدعوات.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾

يعني: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا﴾ اختبرنا بالابتلاءات، وأنواع الفتن ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من مؤمني الأمم السابقة، فما كان يصرفهم ذلك عن دينهم.

ونحن نختبر بهذه الفتن كذلك مؤمني هذه الأمة؛ ليتميز الصادق منهم من الكاذب.

﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ منهم في إيمانهم ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ المكذبين منهم بعد وقوع ذلك، كما علمه سبحانه قبل وقوعه.

وبعد أن بين ربنا أن في الناس مَن هو صادق في إيمانه، ومَن هو كاذب فيه، وضح أن لكل منهما جزاءه، حيث يقول الحق تبارك وتعالىٰ:

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَـَٔاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾﴾

يعني: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: الكفر، أو المعاصي ﴿أَن يَسْبِقُونَا﴾ ويفلتوا من عقابنا لهم؟ إن ظنوا ذلك، فقد ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ لأنفسهم، ويظنون بها إذْ أننا لن نتركهم، وسنعاقبهم، وأما ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟﴾ الثواب، ويخاف العقاب، عند حلول ﴿لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾ بالموت، وما بعده: ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ المحدد للثواب والعقاب ﴿لَـَٔاتٍ﴾ لا محالة وسنجازيه على رجائه هذا، واستعداده بالإيمان والعمل الصالح خيرًا ﴿و﴾ الله ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لكل ما يقال من خير أو شر ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بكل ما يفعل من خير أو شر.

هذا، ولأن الصبر على الفتن والابتلاءات نوع من أنواع الجهاد، فإن الله عز وجل يقول:

﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾

أي: ﴿وَمَن جَٰهَدَ﴾ نفسه بالصبر على الطاعات، والبعد عن المعاصي، وجاهد الشيطان، وجاهد الأعداء ﴿فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ﴾ لأن منفعة ذلك تعود إليه حيث ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وعن جهادهم، وعن طاعاتهم.

ثم يخبر ربنا ـ تبارك وتعالى ـ أنه مع غناه عن خلقه، فهو يجازيهم على الخير أفضل الجزاء.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾

يعني: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسوله ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ التي ترضي الله، وتصلح البلاد، وتسعد العباد ﴿لَنُكَفِّرَنَّ﴾ نستر ونصفح ﴿عَنْهُمْ﴾ ونسقط ﴿سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ فلا نعاقبهم عليها، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ جزاءً ﴿أَحْسَنَ﴾ من العمل ﴿ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

ولمَّا بين ربنا سبحانه أنه يجزي على العمل الصالح، ذكر من الأعمال الصالحة هنا بر الوالدين، فقال تعالىٰ:

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾

﴿وَوَصَّيْنَا﴾ يعني: وأمرنا ﴿ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ الذين هما سبب وجوده، ولهما عليه غاية الإحسان ﴿حُسْنًا ۖ﴾ لهما، وبهما، في القول وفي الفعل.

﴿و﴾ لكن ﴿إِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى﴾ في الألوهية ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: ما لا يصلح أن يكون إلٰهًا ـ وكل ما سوىٰ الله لا يصح أن يكون ـ ﴿فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ﴾ لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

﴿إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ جميعًا في يوم القيامة ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾ وأجازيكم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الإحسان إليهما وبرهما، أو عدم ذلك، ومخالفتهما في الإشراك بالله، وعدم طاعتهما، لذلك اثبتوا علىٰ الإحسان إليهما، مع عدم الطاعة لهما في المعصية.

ولهذا يقول ربنا عز وجل:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾

ولمَّا بيّن تعالىٰ أن الناس بالنسبة للإيمان قسمان: مؤمن وكافر، حيث قال:

﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣].

بدأ يذكر قسمًا ثالثًا منهم، وهو المذبذب في إيمانه، يقول الله تعالىٰ:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ۖ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾

أي: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ فريق ثالث بالنسبة للإيمان، وهم ﴿مَن يَقُولُ﴾ بلسانه ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ ولمَّا يدخل الإيمان قلبه، بدليل قول الحق: ﴿فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ﴾ بسبب الدين، انتسابًا إليه، أو عملًا والتزامًا به، أو نشرًا له ودفاعًا عنه: اهتز إيمانه و ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ﴾ ما يناله من أذاهم ﴿كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ فارتد عن الإسلام، هذا في حال البلاء، وأما في حال الرخاء، فيقول سبحانه عنه ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ للمؤمنين علىٰ أعدائهم ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ أشركونا فيما نالكم من خير ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ ومتابعين لكم، وهذا منهم عين الكذب والخداع، والله لا يغيب عنه ذلك ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ جميعًا؟ بلىٰ..!! لذلك هو يعلم ما في صدورهم.

وبالتالي، فهو عز وجل يعد المؤمنين بالخير، ويوعد المنافقين ويهددهم بالسوء، إذْ يقول المولىٰ عز وجل:

﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾

يعني: وسيجازىٰ كل واحد من الفريقين بما يناسبه ويستحقه.

وبعد أن بين الله هذه الفرق الثلاث، يوضح أن الكفار لا يكفون عن دعوة المؤمنين إلىٰ مذاهبهم وباطلهم، بشتىٰ الوسائل، حيث يقول جل وعلا:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾

المعنىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ليصرفوهم عن دينهم، وعن استقامتهم ﴿ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا﴾ طريقنا ومنهجنا، في السلوك، وفي التشريع، وفي الحكم، وفي كل شيء نحن عليه؛ لتتقدموا واتركوا ما أنتم عليه، مما هو سبب فقركم، أو تخلفكم.. إلخ ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ وآثارها وأضرارها عنكم إن كان فيما ندعوكم إليه من أخطاء.

ويكذبهم الله تعالىٰ، ويرد عليهم في تنبيه المؤمنين، وتحذير لهم من الانخداع بهذه الدعوات الهدامةُ إذْ يقول سبحانه:

أولًا: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ﴾ كما يقولون ﴿مِنْ خَطَٰيَٰهُم﴾ إذا تركوا دين الله، أو هديه وشرعه، واتبعوهم ﴿مِن شَىْءٍ﴾ أبدًا؛ حيث لا يحمل أحد يوم القيامة وزر أحد، فضلًا عما نشاهده في الدنيا من تنصل القوي من الضعيف، بعد أن يتخلى عن مبادئه؛ مرضاة لهذا القوي الكافر.

ثانيًا: ﴿إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ فيما يقولون.

ثالثًا: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ﴾ يوم القيامة ﴿أَثْقَالَهُمْ﴾ أي: أوزارهم، ﴿وَأَثْقَالًا﴾ لغيرهم ممن أضلُّوهم، بسبب إضلالهم لهم ﴿مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾.

رابعًا: ﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ سؤال عقاب ﴿عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ من إنكار البعث والحشر والحساب.

ورد في أول السورة قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ [العنكبوت: ٣]. وهنا يرينا الله تعالىٰ بعض الذين فتنوا في دينهم، وأوذوا في الله من السابقين، وكيف كان صبرهم علىٰ هذا الإيذاء.. وكيف أن الصبر مع الإعداد يعقبه النصر.. يقول الله تعالىٰ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾

أي: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ عليه السلام ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ يدعوهم إلىٰ توحيد الله، وعبادته ﴿فَلَبِثَ﴾ أي: مكث ﴿فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ يدعوهم إلىٰ توحيد الله ولكنهم كذبوه، وسخروا منه، وآذوه.. ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾ عقابًا لهم، فغرقوا ﴿وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾، وأما هو ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ ﴿و﴾ من معه من ﴿أَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ وهم المؤمنون الذين صبروا معه، وتحملوا الأذىٰ من أجل إيمانهم ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ﴾ أي: السفينة وقصتها ﴿ءَايَةً﴾ وعبرة ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾، هذه قصة نوح عليه السلام.

ثم قصة أخرىٰ: وهي قصة إبراهيم عليه السلام، يقول الله سبحانه:

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾

يعني: ﴿و﴾ اذكر ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ عليه السلام ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ وهو يدعوهم إلىٰ توحيد الله وعبادته ما يلي:

أولًا: دعاهم إلىٰ دين الله، يا قوم ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾.
ثم حببهم فيه ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مما أنتم عليه ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

ثانيًا: بيّن فساد ما هم عليه، يا قوم ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا﴾ أصنامًا ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ كذبًا.

ثالثًا: بيّن عجز آلهتهم، يا قوم ﴿إِنَّ﴾ هؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ عاجزون ﴿لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ فلا تخافوهم.

رابعًا: وجههم إلىٰ الصواب ﴿فَٱبْتَغُوا۟﴾ يا قوم ﴿عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ واطلبوه منه ﴿وَٱعْبُدُوهُ﴾ وحده ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ﴾ فضله وإنعامه؛ حيث إنكم ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ والجزاء عنده وحده.

خامسًا: نهاهم عن التكذيب، وخوّفهم من آثاره ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟﴾ وتكفروا ﴿فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ كقوم نوح عليه السلام، فعوقبوا، وأغرقوا، وأهلكوا، فلا تفعلوا فعلهم.

سادسًا: أخلى مسؤوليته عنهم.. ﴿و﴾ يا قوم لقد أبلغتكم، وهذا دوري فقط، إذْ ﴿مَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ وليس عليه هداهم.

وبعد أن رأينا تركيز إبراهيم عليه السلام معهم في بيان التوحيد، والرسالة يبين الله عز وجل له ولهم أمر البعث ويوضحه، فيقول جل جلاله:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾﴾

أي: ﴿أ﴾ غفلوا يا إبراهيم ﴿وَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾ فيستدلون على صحة البعث؟ أخبرهم، وقل لهم: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ وسيعيدهم وسيحاسبهم.

إن كانوا لم يروا ذلك:

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾

أي: ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وانظروا إلى مخلوقات الله؛ لتعلموا ﴿كَيْفَ بَدَأَ﴾ الله ﴿ٱلْخَلْقَ﴾ أولًا..؟

﴿ثُمَّ﴾ كيف أن ﴿ٱللَّهُ يُنشِئُ﴾ الخلق ﴿ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ وهي: البعث..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وما دام الأمر كذلك، فهو سبحانه:

﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾

يعني: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ﴾ من عباده ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ ترجعون جميعًا، فوحدوه إذن، وأطيعوا رسله، واستعدوا للقائه.

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: هاربين من عقاب ربكم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ فهما من كونه، وأنتم في قبضته.

﴿و﴾ أيضًا ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ﴾ يتولى أموركم ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يدافع عنكم.

ثم يصدر ربنا حكمه في الكافرين المصرِّين، فيقول جل شأنه:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾

أي: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ الدالة علىٰ توحيده، والشاهدة بقدرته، ﴿و﴾ كفروا كذلك بـ ﴿لِقَآئِهِۦٓ﴾ في يوم البعث؛ لأنهم أنكروا الآخرة.

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى﴾ ودخول جنتي، لعدم إيمانهم بها.

﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في هذه الدار التي أنكروها، وكفروا بها.

وبعد أن اتضحت تمامًا هذه الأمور، يأتي جواب قوم إبراهيم عليه السلام علىٰ دعوته لهم للإيمان، والتوحيد، وترك الأصنام، يقول القوي القاهر:

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾

يعني: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ له، حوارًا، ولا نقاشًا، ولا حتىٰ جدالًا..بل كان رد الطغاة العاجزين عن الحوار !! حيث ﴿قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ لنستريح منه، ويكون عبرة لغيره، واتفق القوم علىٰ حرقه، وبالفعل ألقوه في النار.. ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩].

﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ أي: جعلها بردًا وسلامًا عليه.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: في إنجائنا لإبراهيم من النار.

وخرج منها إبراهيم عليه السلام سليمًا معافىٰ من أي أذًى.

﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

أي: ﴿و﴾ لمَّا خرج من النار ونجا من المحنة..!!

﴿قَالَ﴾ لهم مستمرًا في بيان فساد عقيدتهم، وسوء تصرفهم: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا﴾ تعبدونها ﴿مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾ تجتمعون عليها، وتتوددون لبعضكم البعض حولها ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ تتقطع هذه المودة، ويتفرق هذا التجمع، و ﴿يَكْفُرُ

﴿بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ بسبب هذا الكفر.

﴿و﴾ يكون ﴿مَأْوَىٰكُمُ﴾ ومقركم ﴿ٱلنَّارُ﴾ تقيمون فيها جميعًا، التابع والمتبوع، لا يخرج منها أحد.

﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ ينقذونكم من عذاب الله، فآمنوا خيرًا لكم.

وبهذا تبين ثبات إبراهيم عليه السلام في دعوته، فلم تغيره المحنة، ولم تفتنه النجاة منها وفي هذا درس للدعاة إلىٰ الله تعالىٰ يوم القيامة.

ورأىٰ الناس المعجزة النار التي تحرق، لم تحرق إبراهيم !! بل خرج منها سليمًا يواصل دعوته.

﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾

يعني: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ﴾ عندما رأىٰ هذه المعجزة ﴿لُوطٌ﴾ عليه السلام. وواصل إبراهيم دعوته في قومه ﴿و﴾ بعد مدة من الزمان، أُمِر بالهجرة من بينهم، لذلك ﴿قَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ﴾ حيث أمرني ﴿رَبِّىٓ﴾ بالهجرة ﴿إِنَّهُۥ هُوَ﴾ سبحانه ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي يبعد أذىٰ أعدائي عني ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يأمرني إلَّا بما هو خير.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾

يُبيِّنُ الله تعالىٰ: وبعد أن نجينا إبراهيم من النار، وبعد أن هاجر إلىٰ ربه، أنعمنا عليه بهذه النعم:

النعمة الأولىٰ: ﴿وَهَبْنَا لَهُۥٓ﴾ من فضلنا ﴿إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ بعد أن كان وحيدًا.

النعمة الثانية: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ﴾ وآتيناهم ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: جنس الكتاب: كالتوراة، والإنجيل، والقرآن.

النعمة الثالثة: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ﴾ من ثناء حسن عليه، وصلاة كذلك عليه، وحبِّ أهل جميع الملل له، والانتساب إليه ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾.

النعمة الرابعة: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ومعهم في الجنة.

وأما عن لوط الذي آمن له وهاجر معه، فقد نُبئ وكُلف بدعوة قومه، يقول الله تعالىٰ:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾

يعني: ﴿و﴾ اذكر ﴿لُوطًا﴾ عليه السلام ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ وهو يدعوهم إلىٰ الإيمان بالله ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ أي: الأعمال الفاحشة، التي ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ﴾ أبدًا ﴿مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

ثم بدأ يفصِّل لهم بيان هذه الأعمال الفاحشة، فقال:

أولًا: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ دون النساء، وهو: اللواط.

ثانيًا: ﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ علىٰ المارة فيه، فتسرقونهم وتقتلونهم.

ثالثًا: ﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ أي: في مجالسكم ﴿ٱلْمُنكَرَ﴾ في كل شيء من الأقوال والأفعال، علانية دون تخفٍّ به أو خجل منه، أو نهي من بعضكم لبعض. ولمَّا قال لهم ذلك، ماذا كان جواب قومه له..؟

يقول تعالىٰ: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟﴾ له: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ الذي تهددنا به ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فيما تخوفنا به من العذاب.

يعني: وصل بهم الاستهزاء منه إلىٰ غايته، ولذلك لجأ إلىٰ ربه، وطلب نصرته:

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ الذين يشيعون الفساد بين العباد، ويحملونهم علىٰ ارتكاب المعاصي والفواحش.

يقول ربنا عز وجل:

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

يعني: واستجاب الله دعاء لوط عليه السلام، وطلبه النصرة من ربه علىٰ قومه.

يقول تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ﴾ إلىٰ إبراهيم ﴿بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ وهي الولد: أخبروه و ﴿قَالُوٓاْ﴾ له ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ التي فيها لوط عليه السلام؛ حيث: ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ وما زالوا مصرين علىٰ ظلمهم وكفرهم، وممارستهم للفواحش، التي نهاهم عنها لوط.

ولمَّا سمع منهم إبراهيم عليه السلام هذا الكلام خشي الهلاك والعذاب علىٰ لوط، لذلك:

﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

أي: ﴿قَالَ﴾ إبراهيم للملائكة: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ﴾ وإني أخاف عليه الهلاك.

﴿قَالُواْ﴾ جوابًا له وتطمينًا: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ﴾ منك ﴿بِمَن فِيهَا ۖ﴾ من الفاسدين والصالحين ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ من هذا الهلاك ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ ستهلك؛ لأنها ﴿كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ الهالكين بسبب الرضا بما يفعلون، ولها إذًا جزاء ما كانوا يفعلون.

وخرج الملائكة من عند إبراهيم عليه السلام، بعد أن بشروه بغلام عليم. وبعد أن أخبروه بهلاك قوم لوط، ساروا إلىٰ لوط ودخلوا عليه، يقول الله تعالىٰ:

﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾﴾

يعني: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾ تبشره بنصر الله له، وتخبره بإهلاك الله لقومه، ولكن وقبل أن يعرفهم ـ ﴿سِيٓءَ بِهِمْ﴾ أي: ساءه مجيئهم؛ خوفًا عليهم من قومه.

﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أي: تصرفًا، حيث لا يدري ماذا يفعل؟ فهو إن أبقاهم عنده

لم يستطع منع قومه عنهم، وإن تركهم يمشون خاف عليهم من قومه أيضًا. وأحست الملائكة بحيرته: ﴿وَقَالُوا﴾ له: ﴿لَا تَخَفْ﴾ علينا ﴿وَلَا تَحْزَنْ﴾ مما تتوقع حدوثه من قومك معنا يا لوط ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾ من الهلاك بإذن الله ﴿إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾ ستهلك، إنها ﴿كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾.

يا لوط: ﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ﴾ بأمر الله ﴿عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا﴾ أي: عذابًا ﴿مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ ويخرجون عن طاعة الله، ويخالفون دعوتك لهم، ويهزأون منك.

وخرجت الملائكة من عنده، وجاء أمر الله بعذابهم، وبالفعل نزل بهم عذاب الله،!!

حيث جعل قراهم عاليها سافلها، وأمطر عليهم ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٢، ٨٣].

يقول الله تعالىٰ:

﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾

أي: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا﴾ أي: من القرية التي هلكت ﴿آيَةً بَيِّنَةً﴾ أي: علامة واضحة ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فيتعظون، فيرتدعون عن المعاصي.

هذا، وبعد أن تنتهي قصة قوم إبراهيم عليه السلام، ومعها قصة قوم لوط عليه السلام، تبدأ السورة في ذكر قصة أهل مدين، قوم شعيب عليه السلام، يقول الله تعالىٰ:

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾

يعني: ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إِلَىٰ﴾ أهل ﴿مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ يدعوهم إلىٰ الإيمان بالله، وتوحيده ﴿فَقَالَ﴾ لهم:

أولًا: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وأطيعوه، واعملوا بشرعه، ولا تخالفوه.

ثانيًا: ﴿وَارْجُوا﴾ بعملكم ثواب ﴿الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ أي: وآمنوا به، واستعدوا له بالعمل الصالح.

ثالثًا: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ لها، ولأهلها.

فماذا كان موقفهم من دعوته هذه؟

يقول الله تعالىٰ: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ أي: الزلزلة الشديدة؛ لأنهم كذبوا، فهلكوا ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ﴾ بلدهم وأرضهم ﴿جَٰثِمِينَ﴾ ميتين، باركين علىٰ ركبهم.

وإلىٰ بيان نهاية عاد قوم هود عليه السلام، وقصة ثمود قوم صالح عليه السلام؛ ليبين الله ما فعله بهم، تكون الآيات التالية: يقول الله تعالىٰ:

﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾﴾

المراد: ﴿و﴾ أهلكنا، كذلك ﴿عَادًا وَثَمُودَا۟﴾ لكفرهم وعنادهم.

﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم﴾ هذا الإهلاك لهم ﴿مِّن﴾ آثار وبقايا ﴿مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ﴾ التي تمرون بها في سفرياتكم.

﴿و﴾ هؤلاء قد ﴿زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ من الكفر والمعاصي، والعناد، ﴿فَصَدَّهُمْ﴾ بها ﴿عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ المستقيم، الذي أمروا باتباعه.

﴿و﴾ العجيب أنهم ﴿كَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ أي: يدّعون الفهم وبُعد النظر، والوعي بكل شيء..!!

ثم تنتقل الآيات إلىٰ هؤلاء الطغاة: قارون وفرعون وهامان، حيث يقول سبحانه:

﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾

أي: ﴿و﴾ أهلكنا ﴿قَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ﴾ أيضًا.

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم﴾ كذلك نبي الله ﴿مُّوسَىٰ﴾ عليه السلام ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الدالة علىٰ وحدانية الله وقدرته، وهو يدعوهم إلىٰ الإيمان.

﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وكذبوه، وعاندوه، وأصروا علىٰ كفرهم، فأهلكهم الله

﴿وَمَا كَانُوا۟ سَـٰبِقِينَ﴾ عذابه، أي: أدركهم، فما هربوا منه.

وبعد أن ذكر الله قصص هؤلاء جميعًا، يعقب سبحانه بما يدل على أنه لا يعاقب أحدًا إلَّا بذنب، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾

يعني: ﴿فَكُلًّا﴾ من هؤلاء ﴿أَخَذْنَا﴾ أي: عذبنا ﴿بِذَنۢبِهِۦ ۖ﴾.

﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ وهي: الريح العاصف المحملة بالحصباء.. أي: الرمال، وكان ذلك لقوم لوط، وعاد قوم هود.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ أي: عذبته الصيحة، فأخمدت منهم الأصوات والحركات، وكان ذلك: لثمود قوم صالح، ومدين قوم شعيب.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾، وكان ذلك: لقارون.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ﴾، وكان ذلك لقوم نوح، وفرعون، وقومه، وهامان ﴿و﴾ في الحقيقة ﴿مَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أي: يعاقبهم بغير ذنب ﴿وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالكفر والعصيان، واستحقاق العذاب.

وهكذا، كل ظالم لا يفلت أبدًا من عقاب الله له، إن في الدنيا وإن في الآخرة، فلا يغتر الظالمون بإمهال الله لهم، وتأخير نزول العذاب بهم.

ولمَّا بين الله تعالى أنه أهلك وعذَّب مَن أشرك، ولم ينفعه أو يمنع عنه العذاب معبوده، مثَّل اتخاذه ذلك المعبود الذي لا ينفع إلٰهًا، باتخاذ العنكبوت بيتًا لا ينفع، فقال عز وجل:

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾

أي: مثل آلهتهم، كبيت العنكبوت، في الضعف وعدم النفع، **وكذلك** كل عقيدة غير الإيمان بالله.

﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لو كان عندهم أدنى تفكير، واستعمال للعقل: لعرفوا ذلك، ولكنه العناد..!!

ثم يؤكد ربنا ذلك بقوله:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾﴾

يعني: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ عز وجل ﴿يَعْلَمُ﴾ أن ﴿مَا يَدْعُونَ﴾ أي: ما يعبدون ﴿مِن دُونِهِ﴾ ليس بشيء ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

فكيف لعاقل أن يترك عبادة العزيز الحكيم، ويعبد ما ليس بشيء؟

على كل حال:

﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾

لمَّا ضرب الله المثل بالعنكبوت، قال الكافرون: لم يضرب الله الأمثال بالهوام والحشرات؟ فرد عليهم سبحانه قائلًا: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ تقريبًا لأذهانهم، ودعوة لهم.. فلا تستهينوا بها، ولا تتعجبوا منها، ﴿و﴾ بالرغم من ذلك ﴿مَا يَعْقِلُهَا﴾ ويستفيد منها ﴿إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ الذين يعملون بطاعة الله، ويجتنبون سخطه.

ومع ضرب الله الأمثال بهذه الأشياء، فقد ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بقدرته؛ لحكمة وغاية، وليس عبثًا ولا لعبًا، وكذلك ضرب الأمثال بهذه، هو لحكمة وغاية، وليس عبثًا ولا لعبًا.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ وعبرة وفائدة ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

هذا، وإن كنت يا محمد ما زلت تأسف على كفر قومك، وتحزن على عنادهم، فافعل ما يلي:

﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾

يعني: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ لتعرف أن إخوانك من الأنبياء عانوا ما عانيت، وتحملوا من الأذىٰ ما يحدث لك، ومع ذلك ما قصَّروا في تبليغ الرسالة، وأداء الأمانة ولتتقرب بهذه التلاوة إلىٰ ربك، ولتقف علىٰ ما أمر به المولىٰ ونهىٰ عنه، ولتبلغه ـ كذلك ـ إلىٰ الدنيا كلها.

﴿و﴾ بعد ذلك: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ أي: داوم علىٰ إقامتها؛ حيث ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ جميعه، وفي الصلاة ذكر الله.

﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ في النهي عن الفحشاء والمنكر، وأكبر ثوابًا عند الله.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ من الخير؛ فيثبتكم عليه.

وإلىٰ توجيه آخر، يبين طريقة إرشاد أهل الكتاب، إذ يقول ربنا تبارك وتعالىٰ:

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾

يعني: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ أصلًا؛ فإن الجدل غير محبوب، وإذا كان ولابد من ذلك، فجادلوهم بالطريقة ﴿الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ من طريقتهم، أسلوبًا، ومنهجًا، وغاية؛ وهذا مع المعتدلين فيهم.

وأما ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ فأفرطوا في العناد، أو أثبتوا لله تعالىٰ الولد، أو قالوا إن الله ثالث ثلاثة، ودعت الظروف إلىٰ جدالهم، فجادلوهم بغلظة وخشونة.

وهذا مثال للطريقة الأحسن في النقاش معهم.. ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ وهو القرآن ﴿و﴾ بالذي ﴿أُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ وهو التوراة، والإنجيل ﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ﴾.

ولكن: لا يفوتكم أن تعلنوا بكل وضوح إسلامكم؛ حيث قولوا ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ أي: منقادون، وبرسله جميعًا معترفون، وبشرعه ملتزمون.

ثم يقول ربنا سبحانه وتعالىٰ لمحمد ﷺ:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾﴾

يعني: ﴿و﴾ كما أنزلنا الكتاب إلىٰ مَن قبلك من الأنبياء ﴿كَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ﴾ وهو القرآن، فمصدر الوحي واحد: وهو الله، والدين واحد: وهو الإسلام.

﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ من قبلك، وآمنوا به، واتبعوا أنبياءهم ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ﴾ أي: بالقرآن؛ لأن كتبهم ذكرته، وأنبياءهم بشروا بمحمد ﷺ.

﴿وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: أهل الكتاب الموجودين في زمانك وإلىٰ يوم القيامة ﴿مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾.

هذا، ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ ورسولنا ﴿إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ المعاندون، المصرُّون بعد وضوح الحق علىٰ ما هم عليه.

ثم تقدم الآيات الدليل علىٰ كون القرآن معجزًا، وأنه من عند الله فتقول:

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾

يعني: والدليل علىٰ أننا أنزلنا إليك القرآن أنك ﴿مَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ﴾ أي: ما كنت قارئًا ولا كاتبًا.

ولو كنت كذلك ﴿إِذًا لَّٱرْتَابَ﴾ وشك وشكك ﴿ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ المنكرون نبوتك.

ولكن شيئًا من ذلك لم يكن.

﴿بَلْ هُوَ﴾ أي: القرآن ﴿ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ محفوظات ﴿فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ﴾ من المؤمنين.

﴿و﴾ حقيقة: فإنه ﴿مَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ لأنهم بعد بيان المعجزة أصروا علىٰ كفرهم، فصاروا ظالمين.

ومن جحودهم أنهم استمروا علىٰ ظلمهم..

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾

أي: ﴿وَقَالُوا۟﴾ عنادًا ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ﴾ كما أنزل على موسى لآمنا به!! ﴿قُلْ﴾ لهم:

أولًا: ﴿إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ﴾ ينزلها كيف يشاء، متىٰ يشاء، مع من يشاء، ولا أملك منها شيئًا.

ثانيًا: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠﴾ فقط ﴿نَذِيرٌ﴾ لأهل النار ﴿مُّبِينٌ﴾ أي: أُبَيِّنُ لهم المعاصي التي تدخلهم فيها؛ ليجتنبوها.

ثم.. ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾

يعني: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ فيما طلبوا؛ لإقناعهم بنبوة محمد؛ آية تغنيهم عن كل الآيات..!!

وهي ﴿أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: القرآن ﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ في كل زمان ومكان، ومحفوظ بحفظ الله، لا يزول، ولا يُنْسىٰ، بخلاف الآيات المحسوسة، كالعصا واليد.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: جعل القرآن هو الآية المستمرة، الباقية ﴿لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ به، فينتفعون بهديه.

وبذلك ظهرت رسالته ﷺ، واتضحت أدلته، ومع ذلك لم يؤمن به المعاندون من أهل الكتاب، لذلك يقول له ربنا الحكيم الخبير:

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾

يعني: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ﴾ بصدقي في دعوىٰ الرسالة، ثم بين كونه سبحانه كافيًا في هذه الشهادة بكونه عالمًا بكل شيء ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فهو مطلع علىٰ أمري وأمركم، وسيجازيكم علىٰ كفركم وإنكاركم، وعنادكم.

هذا، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ وهو كل ما يخالف ما جاء به محمد ﷺ ﴿وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ وآياته، وأنتم منهم ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ الحقيقيون؛ لأنهم خسروا أعظم الصفقات؛ حيث اشتروا الكفر بالإيمان، فهم الخاسرون يوم القيامة.

وبعد أن انتهىٰ النقاش مع أهل الكتاب، يعود الحديث عن المشركين، فيقول تعالىٰ:

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾

أي: ﴿و﴾ هؤلاء الكفار ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ الذي تخوفهم به، ويقولون لك: متىٰ هو؟

﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ موعد محدد له ﴿لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ في الوقت الذي يطلبون، علىٰ أية حال سيأتيهم العذاب ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بوقت مجيئه.

وهذا أنكىٰ بهم، وأكثر إيلامًا لهم.

عجيب!! ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ وهو آت لهم، ونازل بهم لا محالة؛ حيث ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ الذين هم منهم.

يا للهول.. !!

﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ وتحيط بهم النار ﴿مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾

أي: تغطيهم من كل جهاتهم لا يكون له مثيل ﴿و﴾ فوق ذلك ﴿يَقُولُ﴾ الله تعالىٰ لهم زيادة في إيلامهم، وتعذيبهم: ﴿ذُوقُواْ﴾ جزاء ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا.

هذا، وبعد أن تحدث الله عن أهل الكتاب وجزائهم، وكذلك عن المشركين وجزائهم، التفت بالخطاب للمؤمنين تشريفًا لهم، فقال تعالىٰ:

﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰيَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾

﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ إن ضَيَّق عليكم المشركون أو أهل الكتاب في دينكم وعباداتكم، أو آذوكم، أو فتنوكم، وأنتم مقيمون بينهم، وفي دارهم وبلادهم فهاجروا واخرجوا من عندهم، ولا تخافوا ضيقًا ولا ضياعًا، حيث ﴿إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ﴾ وسيفسح الله لكم فيها.

﴿فَإِيَّٰيَ فَٱعْبُدُونِ﴾ في بلد تكونون فيه: أسلم قلبًا، وأصح دينًا، وأكثر عبادة.

ولا تخافوا كذلك موتًا، إذْ يقول الحق تبارك وتعالىٰ:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾﴾

يعني: إن الذي تخافون، وتكرهون، وهو الموت؛ واقع لا محالة، فليكن في سبيل الله إذن..!!

خاصةً وأنكم ﴿إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ فنجازيكم علىٰ إيمانكم، وهجرتكم، وتحمُّلكم.. خير الجزاء. بل أكثر من هذا يقول الحليم الكريم:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾﴾

أي: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وأنتم أيها المهاجرون منهم بالطبع ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾ لننزلنهم ﴿مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ يقيمون فيها ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ المنوعة، ويكونون ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ لا يخرجون ولا يموتون.

﴿نِعْمَ﴾ هذا الأجر: وهو ﴿أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ للصالحات، هؤلاء.

ويأتي علىٰ رأسهم ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ علىٰ أذى المشركين في إقامتهم، وألم مفارقة الأوطان في هجرتهم، وكذلك في فعل الطاعات، والبعد عن المعاصي والسيئات.

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ في كل أحوالهم، الدينية والدنيوية، خاصةً وأنه من المعلوم أن الصبر والتوكل هما زاد المهاجر.

ثم يقول ربنا للذين يهاجرون في سبيل الله: لا تخافوا ـ ثالثًا ـ علىٰ الرزق.

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾

وكم من ﴿دَآبَّةٍ﴾ ضعيفة ﴿لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ معها، ومع ذلك ﴿ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ﴾ أيضًا، وإن لم يكن معكم زاد ولا نفقة.

وهو ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالكم ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بإخلاصكم.

ثم يخاطب الله المؤمن في شأن الكفار تعجيبًا من حالهم، فيقول عز وجل:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾

يعني: ﴿وَلَئِن﴾ سألت أيها المؤمن هؤلاء المشركين عن الذي ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ﴾ ويقرون بذلك، ومع ذلك يعبدون غيره ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: يصرفون عن عبادته وحده..؟

وهو الله الذي خلق السمٰوات والأرض.. إلخ، وهو الله الذي ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ فيوسعه له، ﴿وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ﴾ أي: يضيقه عليه، وآلهتهم لا تفعل ذلك، ولا تستطيعه، حقًّا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

أيضًا.. ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾

يعني: ﴿وَلَئِن﴾ سألت أيها المؤمن هؤلاء المشركين، عن ﴿مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ بالنبات ﴿مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ ويقرون بذلك، ومع ذلك يعبدون غيره.

يقول تعالىٰ للمؤمن: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ علىٰ أنك تقر بما يقرون به، ثم ينفعك الله بنعمة التوحيد والإيمان، علىٰ خلافهم.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ولو عقلوا: لأقروا واتبعوا، ولكنهم أقروا، وخالفوا.

ومن المعلوم أن الذي جعلهم يخالفون بين فعلهم، وبين ما يقرون به هي الحياة الدنيا، وزينتها، واللَّهو واللعب فيها، لذلك يبين الله لهم أن ذلك ليس بشيء، إذْ يقول:

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾

أي: أن ما يشغلهم ويلهيهم، لا يدوم، وهو كل ما في الحياة الدنيا.

﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ﴾ أي: الحياة الحقيقة، التي تدوم، فلا فناء لها، ولا زوال، ولا انقضاء.

﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أنه قد شغلتهم الدنيا عن الآخرة، ولكنهم لا يعلمون..!!

ومع انشغالهم بالدنيا، وكفرهم بوحدانية الله، وتفرده سبحانه بالقدرة..

﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾

يعني: ﴿فَـ﴾ إنهم مع شركهم وعنادهم ﴿إِذَا رَكِبُوا۟﴾ ذات يوم ﴿فِى ٱلْفُلْكِ﴾ السفينة، وجاءتها ريح عاصف ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: الدعاء له وحده.

﴿فَلَمَّا﴾ استجاب دعاءهم، و ﴿نَجَّىٰهُمْ﴾ مما هم فيه، وخرجوا ﴿إِلَى ٱلْبَرِّ﴾ وأمِنوا من الغرق ﴿إِذَا هُمْ﴾ مرة أخرىٰ ﴿يُشْرِكُونَ﴾ وينسون ما كانوا له يدعون.

وذلك ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ﴾ من النعم، ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ﴾ بالحياة الدنيا وزينتها علىٰ كل حال: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وبال عملهم عند زوال أملهم.

وعلىٰ أية حال، هذا ليس بغريب عليهم..

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾

يعني: ﴿أَ﴾ نسوا، وغفلوا ﴿وَلَمْ يَرَوْا﴾ بعيونهم ﴿أَنَّا جَعَلْنَا﴾ مكة بلدهم ﴿حَرَمًا﴾ مصونًا ﴿ءَامِنًا﴾ لكل مَن فيه، في الوقت الذي كان ﴿يُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ﴾ فيه ﴿مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ﴾.

أنسوا هذه النعمة، وكفروا بالله!!؟ هذا باطل.

﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ﴾ أي: الأصنام ﴿يُؤْمِنُونَ﴾..؟

﴿وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ﴾ والمنعم بها ﴿يَكْفُرُونَ﴾..؟ إنهم حقًّا ظالمون.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾

أي: ليس أظلم من هؤلاء، إن لهم في جهنم ﴿مَثْوًى﴾ إقامة، لا يخرجون منها أبدًا.

وهناك فريق آخر يحسن ذكرهم، وخَتْم السورة بهم، يقول عنهم ربنا عز وجل:

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾

يعني: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا﴾ في سبيلنا، وَلِوَجْهنا، ونصرة ديننا أي: جاهدوا النفس، والشيطان والأعداء.. هؤلاء: ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ﴾ إلىٰ مرضاتنا في الدنيا وفي الآخرة، وطرقنا إلىٰ النصر علىٰ أهوائهم وشياطينهم، وأعدائهم وجهادهم، هذا إحسان.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بالنصر والتوفيق والتأييد.

* * *